

الذاكرة العاملة ودورها في تحصيل مادة التاريخ

أ.م.د. كرار عبد الزهرة عبد الرضا

وحدة أبحاث الذكاء والقدرات العقلية

كلية التربية الأساسية/ الجامعة المستنصرية

بغداد- العراق

karar.edbs@uomustansiriyah.edu.iq

تُعد الذاكرة العاملة إحدى أهم البنى العقلية التي تفسر قدرة الإنسان على التعلم والتفكير والتحليل. فهي ليست مجرد مخزن مؤقت للمعلومات كما هو الحال في الذاكرة قصيرة المدى، بل هي نظام ديناميكي يتيح الاحتفاظ بالمعلومة ومعالجتها في الوقت نفسه. هذه الخاصية تجعلها حجر الأساس في عمليات معرفية عليا مثل الفهم القرائي، حل المشكلات، التفكير النقدي، والتحليل التاريخي. وفي مادة التاريخ، حيث تتشابك الأحداث والشخصيات والعلاقات السببية، تصبح الذاكرة العاملة أداة لا غنى عنها لفهم النصوص المعقدة وربط الوقائع ببعضها.

من الناحية النظرية، قدّم نموذج بادلي وهنشي تصوّرًا متعدد المكونات للذاكرة العاملة، إذ تتكون من الحلقة الصوتية المسؤولة عن الاحتفاظ بالمعلومات اللفظية مثل أسماء القادة أو التواريخ، والمذكرة البصرية-المكانية التي تحفظ الخرائط الذهنية والصور التاريخية، والمركز التنفيذي الذي يدير الانتباه ويوجه العمليات العقلية نحو المعلومات الأكثر أهمية. وهنا يظهر الفرق الجوهرى بين الذاكرة قصيرة المدى التي تكتفي بتخزين المعلومة، والذاكرة العاملة التي تشغلها في سياق التفكير والتحليل.

في سياق دراسة التاريخ، يحتاج الطالب إلى متابعة النصوص الطويلة والاحتفاظ بالمعلومة أثناء القراءة وربطها بما سبق، كما يتعين عليه الربط السببي بين الأحداث مثل ربط اندلاع الحرب العالمية الأولى باغتيال ولي عهد النمسا وتحليل شبكة التحالفات التي أدت إلى توسع النزاع. التاريخ ليس مجرد سرد للأحداث، بل يتطلب التفكير النقدي والتساؤل عن الأسباب والنتائج ومقارنة الروايات المختلفة، إضافة إلى إدارة معلومات متعددة تشمل أسماء وتواريخ وأماكن وأحداث مترابطة.

ويظهر أثر قوة أو ضعف الذاكرة العاملة بوضوح في التحصيل الدراسي. فالطلبة ذوو الذاكرة العاملة القوية يتمكنون من متابعة النصوص الطويلة دون فقدان تسلسل الأفكار، ويستدعون الأحداث التاريخية بشكل منظم أثناء الامتحانات، ويربطون بين الوقائع ويحللون العلاقات السببية، كما يقيمون المصادر التاريخية ويقارنون الروايات المتعددة. أما الطلبة الذين يعانون من ضعف في الذاكرة العاملة فيواجهون صعوبة في متابعة النصوص المعقدة، ويعجزون عن ربط الأحداث ببعضها، ويكتفون بفهم سطحي دون تحليل عميق، مما ينعكس على أدائهم في الامتحانات والنفاسات الصفية.

وقد أكدت الدراسات التربوية أن قوة الذاكرة العاملة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالتحصيل الأكاديمي في المواد التي تتطلب معالجة متسلسلة للمعلومات، ومنها مادة التاريخ. فالطالب الذي يستطيع الاحتفاظ بالمعلومة ومعالجتها في الوقت نفسه يكون أكثر قدرة على فهم النصوص التاريخية واستخلاص الدروس والعبر وبناء رؤية نقدية للأحداث. ولتعزيز هذه القدرة، يمكن للمعلمين والباحثين اعتماد استراتيجيات تعليمية متنوعة مثل استخدام الخرائط الذهنية لتنظيم المعلومات وربط الأحداث بصرياً، وتقسيم النصوص الطويلة إلى وحدات صغيرة يسهل التعامل معها، وتوظيف الأنشطة الذهنية مثل ألعاب الذاكرة أو إعادة سرد الأحداث بترتيب مختلف، إضافة إلى التدريب على الانتباه عبر أنشطة تركز على عناصر محددة داخل النصوص. كما أن الوسائط المتعددة من صور وفيديوهات وجدول زمنية تقوي المذكرة البصرية-المكانية، بينما يسهم التعلم التعاوني في تشغيل الذاكرة العاملة عبر تبادل المعلومات وتحليلها جماعياً.

وتتضح أهمية هذه الاستراتيجيات في أمثلة تطبيقية، فعند دراسة الثورة الفرنسية يحتفظ الطالب باسم لويس السادس عشر وتاريخ 1789، ثم يوظف هذه المعلومات لربطها بسقوط الباستيل وتحليل الأسباب الاقتصادية والسياسية. وفي دراسة الحرب العالمية الثانية، يحتاج الطالب إلى إدارة معلومات متعددة تشمل أسماء القادة وتواريخ المعارك والتحالفات والنتائج، ثم ربطها في شبكة سببية متكاملة.

البعد النقدي والفلسفي للذاكرة العاملة يكشف أنها ليست مجرد أداة معرفية، بل هي أساس التفكير النقدي الذي يمكن الطالب من تجاوز الحفظ إلى الفهم والتحليل. فالتاريخ مادة تتطلب طرح أسئلة جوهرية مثل: لماذا حدث هذا؟ ما النتائج؟ وكيف يمكن مقارنة هذه الرواية بمصادر أخرى؟ وهذه الأسئلة لا يمكن الإجابة عنها دون تشغيل الذاكرة العاملة لإدارة المعلومات المتعددة في آن واحد.

وفي الختام، يمكن القول إن الذاكرة العاملة تمثل مفتاحاً لفهم مادة التاريخ وتحقيق تحصيل أكاديمي متقدم. فهي البنية العقلية التي تدير شبكة الأحداث والوقائع داخل العقل، وتسمح للطلاب بالانتقال من مجرد الحفظ إلى التفكير النقدي والتحليل العميق. ومن هنا، يصبح من الضروري أن يطور المعلمون والباحثون استراتيجيات تعليمية تستهدف تعزيز هذه القدرة، وأن يُنظر إلى الذاكرة العاملة باعتبارها ركيزة أساسية في بناء عقلية تاريخية ناقدة وقادرة على استخلاص العبر من الماضي.